

الحرب اللامنظورة

"فإنّ مصارعنا ضدّ أجناد الشرّ الروحيّة في السماويّات"

"مصارعنا ليست ضدّ لحم ودم... " يقول بولس الرسول. ويعني ذلك أولاً أنّ الحرب لا هواده فيها. فاللحم والدم يشيران في الكتاب المقدّس إلى الوهن والضعف البشريّين عموماً. لذلك قال يسوع لبطرس: "لا لحم ولا دم كشف لك يا بطرس" (متى ١٦، ١٧). وحسنٌ جدّاً أن يعرف الواحد ممّا قوّة عدوّه ليعرف كيف يحتاط له ويسهر. وثانياً، تعني هذه العبارة أنّ الحرب غير منظورة لأنّها ليست ضدّ منظورات أو مجرد بشر أمامنا أو تجارب واضحة. بل الحرب هي ضدّ الرئاسات ضدّ السلاطين ضدّ ولاة العالم عالم ظلمة هذا الدهر...". حربنا اللامنظورة هي مع إبليس وضدّ مكائده. إنّهُ "أبو الكذب" يحارب بالعدر، ومكائده عديدة جدّاً. لذلك هذا يتطلّب سهرًا وصحواً دائماً.

ما دام المسيحيّ يطلب الكمال ويكرّس ذاته لتلبية نداء سيّده "كونوا كاملين كما أنّ أباكم الذي في السموات كامل" (متى ٥، ٤٨)؛ وما دامت الكنيسة هي طريقة ومكان التقديس وتحقيق هذا الكمال؛ وما دام المسيحيّ والكنيسة يشكّلان هكذا ظاهرة غريبة ومعاكسة "لعالم ظلمة هذا الدهر"، لا بدّ إذن أن تتحقّق غاية المسيحيّ والكنيسة عن طريق حرب ضروس قاسية بمقدار شرّ "أجناد الشرّ الروحيّة في السماء".

تعادي الكنيسة، مرّات عديدة، أطراف واضحة وظاهرة. ومنها مثلاً بعض الايديولوجيات الفكرية الملحده أو اللاأخلاقية، أو بعض السلطات الزمنية المتسلّطة التي لا تريد أن تخدم حرية الإنسان أو أنّها تودّ التديّن بطريقتها. وقد تواجه المسيحيّ على الصعيد الفرديّ بعض الشدائد أو المغريات العلنية، ومنها بعض التحدّيات اليومية اللانجيلية، فالشهوات وعالم الاستهلاك والتسابق على الأموال وغيرها الكثير كلّها أمور تتحدّى إيمان المسيحيّ علانية.

رغم ذلك، حتّى في حالة التحدّيات العلنية على حياتنا الجماعية ككنيسة أو على حياتنا الفرديّة كشخص، فإنّنا نؤمن أنّ هناك أيضاً وجه غير منظور في الحرب الروحيّة. لأنّنا نعرف أنّ إبليس هو من

يتخفى وراء كل ما هو ظاهر. هكذا كان الشهداء يؤمنون أن مواجعتهم هي مع إبليس قبل الوالي والحاكم الذي كان يرسلهم للاستشهاد والموت. إنه أبو الكذب الذي يستغل كل الظروف الظاهرة ليحيك منها مكائد تجعلنا نفع في أشراكه وحبائله.

الكمال المسيحيّ مسألة أنثروبولوجية عميقة وليس مجرد تطبيق سطحيّ فريسيّ لبعض من شريعة. إنه عملية تطهير داخليّ، تبديل للإنسان القديم ولبس للإنسان الجديد، أي نموّ إلى ملء قامة المسيح. لهذا شدّد يسوع في عظته على الجبل أن هناك شيئاً جديداً، وهو العميق والأكمل، وأنه يجب "أن يزيد برّنا على الكتبة والفريسيين"، أي أن تكون عبادتنا ليست بالظاهر بل من الأعماق وكيانيّة. الكمال المسيحيّ لا يمنع القتل وحسب بل يحارب حتى الغضب، ولا يمنع الزنى وحسب بل يرفض الشهوة، ولا يمنع أن نحنت بل أن نحلف أيضاً... (متى ٥، ٢٠-٤٨).

لقد امتاز الأدب النسكيّ المسيحيّ برياضة "معرفة الذات"، كدرب لمعرفة الله. "نظّف داخل الكأس"، صرخ يسوع، ورفض القبور المخصّصة من الخارج والمملوءة عفناً من الداخل. لقد حارب يسوع أكثر ما حارب "الرياء"، أي التقوى الظاهريّة التي تؤدّي عملها من أجل العبادة وليس من أجل الإنسان ذاته، فنقلب العبادة إلى مجرد عادة.

المسيحيّة لا تبدّل بعضاً في مسلكيّات الإنسان أو ممتلكاته وحسب، بل هي طبّ وعلم أنثروبولوجي عميق يبدّل الإنسان ذاته. هذه هي الحرب اللامنظورة الداخليّة، التي تُمسح حركات النفس والدوافع وليس فقط بعض الواجبات: "يا بُنيّ أعطني قلبك"، "القلب المتخشّع المتواضع لا يرذله الله".

لهذا تختلف الأسلحة الروحيّة لهذه الحرب اللامنظورة عن أسلحة الحروب المنظورة. إنّها أيضاً أسلحة غير منظورة في فعلها. إنّها الفضائل المسيحيّة، التي يعدّها بولس الرسول مثل: "الحقّ، البرّ، السلام، الإيمان، والكلمة الإلهيّة".

هذه هي أسلحة النور (١ تس ٥، ٨)، إنّها جملة من الممارسات اليوميّة، أي طريق- طريقة حياة تكوّن لدى الإنسان خبرات عميقة شخصيّة مع الله. الكمال المسيحيّ هو خبرات مباشرة مع الله ومع نعمته في القلب البشريّ. لهذا شدّد يسوع على ممارسة الفضائل، مثل الصلاة والصوم... بالخفية وفي المخدع الداخليّ (القلب) وليس لعين الناس. على العكس، نعرف من الأدب الرهبانيّ أمثلة عديدة

كان الرهبان فيها يتظاهرون عكس فضائلهم الداخليّة ليحافظوا على صفاء هذه الأخيرة من أيّ رياء، لا
سمح الله.

المسيحيّة طريق- طريقة علاقة بين القلب البشريّ والله. إنّها طريقة "اختبارات" شخصيّة مع
المحبّة الإلهيّة. شريعة المسيحيّة ولغتها الوحيدة هي "جرح القلب البشريّ بالمحبّة الإلهيّة"، إنّها
الجروح الشافية والمحبة التي تدمي بالتوبة عن كلّ خطيئة. "من الأعماق صرختُ إليك يا ربّ، فيا ربّ
استمعْ لصوتي".

"تقوّوا في الربّ وفي عزّة قدرته"، يشدّدنا بولس الرسول، رغم أنّ الحرب هي مع أعداء غير
منظورين وهي ضارية، إلّا أنّ حياة البرّ والحقّ والعفّة... تجعل الحرب سهلةً إذ يخوضها الله معنا بنعمته
وبسيف كلمته. "إن كان أحدٌ يجاهد، فلا يكلّل إن لم يجاهد قانونياً..." (٢ تي ٢، ٥). إنّ من يلبس "سلاح
الله الكامل" "سيغلب لا محالة وسيأكل من شجرة الحياة التي في وسط الفردوس" (رؤيا ٢، ٧)، آمين.